حسب الله الحاج يوسف

الجفاف وسفر « السمبر » (١)

لم يكن حمد ود الامين على يقين من ان الفجيعة قد حاقت به الى هذا الحد .. فقد وقف مذهولا يعاين هنا وهناك .. في حيرة .. اخرج لسانه .. بلل به شفتيه المتشققتين .. وحك فخذه ورقبته .. بينما ارتفعت كفة يده اليمنى تلقائيا الى جبهته جعلها مظلة لعينيه المنكمشتين، وشد حملاقه بقوة عبر المساحة الشاسعة المكتظة باعواد الذرة .. ثارت عاصفة ساخنة في تلك اللحظة . دارت وتلوت مشرئبة الى عنان السماء ، وحول دوامتها العنيفة تطايرت اوراق الذرة اليابسة كانها في رقصة مجنونة . دنت العاصفة منه واغرقته في سمومها الملعون ، اغمض عينيه . ووضع كلتا يديه فوق رأسه وانكمش ثابتا في مكانه .. هكذا ظل كاتما انفاسه من الغبار ، وحينما تجاوزته بعيدا .. في لحظات .. تعوذ بالله العظيم من الشيطان الرجيم ..

انتبه الى أمره .. رأى اعواد الذرة الخالية من السنابل توشوش حوله في كآبة .. احس برفض غريب للمشهد .. لم يرد ان يقتنع بما حوله . وتحت قدميه .. بل اخذ يتلفت باحثا عن شيء يعتليه .. اي شيء .. كيما يستطيع رؤية الاطراف البعيدة .. رأى عشا من الاعشاش الطينية التي تبنيها الارضة .. اقترب من كتلة الطين الاحمر ، فوجدها قبيحة وشبيهة بقمم الجبال المصغرة المسننة .. ولما احس باستحالة اعتلائها عدل عن الفكرة نهائيا . واتجه توا صوب الكوخ الصغير المقام وسط المزرعة .. وقف يتأمل كومة الرماد ، وبقايا الهشيم ، وبعض الاواني المبعثرة في اهمال ، والتي كان (اجيره) عبد الله الشلكاوي يستعملها للاكل : علب من الصفيح بعضها يحتوي على ملح ، وبعضها على بامية مسحوقة . وهناك حبل ممدود على عيدان الكوخ منشورة عليه قطع من القديد اليابس ، بالاضافة الى وجود صحون عتيقة ، وقدر من الالومنيم ، واكواب ومشط محطم الاسنان ، وطبلة مغلقة واشياء كثيرة وصغيرة . أخذ يلملم ما رآه صالحا منها للمستقبل ، وحشر كل الاشياء في سلة عثر عليها في الكوخ ، وشبكها في مقبض الفأس وحملها فوق كتفه ، وقفل راجعا الى القرية بهمومه واشيائه .

لم تكن قرية (السوربة) بعيدة ، غير ان الدرب اليها ضيقة ومتعرجة ، وكان النهار قد جاوز الظهيرة . وبعض الاعشاب شائكة وبعضها تبدو راكعة كأنها في صلاة .. فكر (ود الامين) في نفسه .. ظل يتناسى كارثة المزرعة ، وتزاحمت الخواطر في راسه .. سيطرت عليه مسألة واحدة .. انها قصة زوجته (العازة) .. فالعازة امرأة طيبة .. وجميلة . وقد تزوجها قبل خمسة شهور ، وكان مبسوطا حين زفت اليه ، وكان عرسه حديث اهل القرية والقرى المجاورة ، حيث ذبحت ثلاثة خراف وثور ، وحضر الوليمة جمع غفير ، من النساء والرجال ، واحتفلت القرية ، ودقت الطبول ، وتسابق الرجال بالجمال ، وقد احضروا له (العازة) يوم الدخلة معطرة بالحلبب والصندلية ، وملتفة بسردحان من الحرير الناعم ، وكانت اطواق الذهب ملتفة حول جيدها ومعصميها ، وانفها واذنيها . وان المساعدة التي تلقاها من اهل القرية تربو على المئة جنيه ، سلمها له الشيخ سعيد مربوطة في منديل اخضر ..

هنا هبط (ود الامين) فجأة بثقله كله وجلس القرفصاء في قلب الدرب .. تنفس نفسا طويلا .. وتشهد .. ومسح العرق المتصبب على عينيه . ثم اخرج علبة التمباك ، واخذ باصبعيه حفنة منها حشاها تحت شفته السفلى ، واتكى على يده اليسرى ونهض واقفا ومشى .. ما زالت الخواطر تطوقه من جميع الجهات .

ـ في بداية شهر يوليه الماضي كان والعازة جالسين على عنقريب صغير وبينما كانا يتهامسان ويتلاطفان لكزته العازة في خاصرته ، لافتة انظاره الى العش العتيق الكائن فوق شجرة الهجليج المقاصدة لبيتهما والى زوجي طير (السمبر) اللذين استوليا عليه ، وعلى انها لم ترهما امس ..

ابتهج (ود الامين » لمرأى الطائرين . على اعتبار انهما من الطيور المهاجرة الموسمية ، وان مجيئهما الان علاقة قاطعة على قرب حلول موسم الامطار .. واخذ (ود الامين) يحدثها حينذاك عن مشاريعه المستقبلية، وكيف انه سيزرع في هذا الموسم مساحة كبيرة من الذرة ، والسمسم، واللوبيا .

ـ كانت العازه حينذاك امرأة طيبة ، فقد منحته كل حليها الذهبية ليستعين بها في الزراعة ، وفعلا اخذ منها الذهب وصرفه ، واستاجر الصبي عبدالله الشلكاوي وبنى له كوخا صغيرا في المشروع ، وظل

(١) « السمبر » فصيلة من الطيور المهاجرة من صنف البجع تأتي في السودان في بداية موسم الامطار وتبني اعشاشها فوق الاشجار المجاورة لسكان القرى . وتعتبر صديقة للزراع وبعد الامطار تسافر .

ينقل له كل لوازمه من الدفيق واللحم النقديد ، وادوات الاكل الاخرى الضرورية . واخذت السماء ترغي بالسحب الهائلة الوردية اللون ، وظلت البروق تشتعل اشتعالا ، ونما الزرع ، واشراب حتى قارب طول المتر واكثر .. وفجاة حدث ما لم يكن في الحسبان . اذ توقف هطول الامطار بلا سبب معقول .. اسبوع باكمله لم تنزل نقطة ، تلا ذلك اسبوع آخر ، فثالث ، واندفعت الشمس تلهب النبت الندي ما زال ينحفز للنمو ، واصبحت السماء دائمة كالحديد الاشهب ، وانكمشت وريقات الذرة واخذت في الاصفرار .. وظل الناس في الامسيات يتعلقون بالبروق التي تداعبهم من بعيد ، ذهبوا الى الشيخ (فرمل) صاحب الضريح الاخضر ، وضعوا امام حارس الضريح الاساور الذهبية ، وربطوا عنده النعاج ، واكثروا من النذور بلا جدوى .. حينذاك جاء عبدالله الشلكاوي اليه في المنزل ، واخبره انه لعدم وجود عمل يؤديه فانه يطلب اذنا كيما يذهب الى ملكال لرؤية امه ، وبعد اسبوعين سوف يعود لمواصلة العمل الذي يكلفه به ، ويكون بذلك مستحقا عليه اجرة اربعة شهور بواقع الشهر تسعة جنيهات .. هذا كله هين .. لماذا رفض الشيخ سعيد ان يقرضنا كيلة ذره ؟ اما العازه فلي معها كلام .. كانت العازة امراة طيبة ودودة لكنها قبل اسبوع ظلت تتشكى وتتمارض .. تارة تدعي انها مريضة بالصداع .. وتارة بالحمى .. وتقول ان ظهرها يوجعها . وكذلك مفاصلها .. وانها تحس بالبرد في هذه الايام العاشه .. لا .. لا هذا شيء غير معقول .. ان هذه المراة الملعونة تفكر في أمر ما .. انها لا تجلب الماء ، فمنذ مدة لم تحمل صفيحة في رأسها .. مع أن البئر غير بعيدة من البيت .. ثم انها لا تطحن العجين ، حتى لو وجدنا حفنة من الشيخ سعيد ..

« وبصق ود الامين وشتم الشيخ سعيد ووصفه بانه رجل يهودي يحب الربا ويضحك على المساكين » .

ومع ذلك فان العازة تريد مني ان احضر لها من الحقول اعشاب السنمكة لكي تشرب نقوعها .. لا بد انها تفكر في رجل آخر .. ولولا ذلك لاطلقت العنزة وسلمنها للراعي .. ولكن هذه المراة تصنع وتعاندني .

* *

حينما وصل حمد ود الامين الى منزله تلقاه (جوبلز) كلبه الابيض الودود . فشب الكلب ورفع يديه الاماميتين واخذ يشم سيده ويلعقه بلسانه .. فزجره ود الامين بحدة لم يالفها (جوبلز) قبل اليوم ، لكنه ابتعد عنه وظل يربت بذيله على الارض ويتلمظ .. وتقدم ود الامين نحو البيت . وما أن رأى عبدالله الشلكاوي الذي عاد قبل ساعة من وصول ود الامين ، حتى انخلع لبه ، وطار صوابه . ما كان ود الامين متوقعا عودة الفنى الشلكاوي في مثل هذه اللحظات المضجرة ..

هش له وصافحه ،وسأله عن احوال البلد ،وعن امه وعن متاعب السفر من ملكال الى كوستي ، ومن كوستي الى سنار .. وعرف منه ان والدته مريضة ايضا ، وانه حضر من سنار راجلا ، وقد بات في الطريق ، وانه لن يمكث هنا كثيرا لان امه في حالة سيئة .

كان عبدالله يتحدث الى عمه ود الامين وهو مشغول بمساعدة العازه التي كانت تتقيأ في تلك اللحظة ، كان يسند رأسها الى اعلى ويضغط على معدتها بيده الاخرى ، والعازه بعد ان تحدث صوتا منكرا وتتكمش معدتها الى نهاية حلقها تلفظ حفنة من الزبد المشوب بلون اصفر حاد المذاق .. فتلحقه بصاقا نزجا وعيناها تدمعان ..

وضع ود الامين يده اليمنى على خدها ، فاجفل من الحرارة ، وكانه وضع يده على صفيح ساخن .. ادرك الان ان العازه غير متصنعة وانها مريضة حقا .. فندم على انه لم يجلب لها معه السنمكه التي طلبتها منه الصباح ..

هدات العازة قليلا وتوقفت نوبة القيء . واستراح الفتى في جلسته ، عقص ركبته اليمنى واسند عليها فكه الاسفل واطلق ساقه اليسرى على سجيتها .. ونكس رأسه واطرق صامتا في انتظار كلمة من عمه ود الامين تطمئنه على مصيره .

سحب ود الامين عنقريبا قصيرا ، وضعه في ظل النهجليجة وذكر الان ان انسلة ما زالت باشيائها معلقة فوق كتفه وضعها تحت العنقريب ضغطا لقصر العنقريب ، واخرج علبة التمباك وتناول منها باصبعيه حفنة حشرها تحت شفته السفلى ، وملص حذائيه ، والتفت الى عبد الله .. تأمله جيدا .. واخذ يفكر في المخرج .. كان عبدالله مقعيا امام العازة وكل ملامحه تدل على الطيبة والبراءة .. كان اشبه ـ بلونه الاسحم ـ بتلك المنحوتات التي درج فنانو افريقيا على عرضها في اعمالهم التشكيلية .. اشاح عنه دون ان يفيده بكلمة .. واذا اراد ان يكلمه فماذا عساه يقول !

ظل الفتى على حالته صامتا ككلب ينتظر عظمة من صبية ما تعلموا مزايا الرفق بالحيوان .. واخذت العنزة المربوطة تثغو ثغاء مزعجا، اما (جوبلز) فقد انطوى عند جذع النهجليجة الهرمة التي حفر له في قعرها حفرة ناعمة جعلت جذورها مكشرة ، وظل يرمق سيده بعين واحدة .. قام ود الامين وبحث في ارجاء المنزل ، والم حفنة من الاعشاب اليابسة دفعها للعنزة ، لتنشغل بها عن الضجيج ، واطل على زير الماء فوجده فارغا .. وتلفت يمنة ويسرى وعاد الى العنقريب .. بصق حفنة التمباك القاتمة اللون وسعل سعلة خشنة ، ثم رقد فوق العنقريب ووجهه متجه الى السماء .. وفيما هو يفكر في هذه المصائب ، استقطبت تفكيره اسراب السمبر السابحة في قبة السماء، كانت اسرابها قد انتظمت تماما ، وتشكلت طوابيرها في نظام مدهش ، وقد استرعى المنظر ود الامين ، فنسي كل شيء ، واخذ يتابعها ويتامل في تلاحمها واتحادها ونظامها .. لعلها تنوي الرحيل ؟.. فعلا انها راحلة ... فها هي واحدة قد انفردت من بين الصفوف واتجهت بالموكب صوب الجنوب الشرقي ، وخلفها السرب سابحا في نظام بديع !

مكتبة انطوان

شارع الامير بشير ـ بيروت

تقدم اكبر مجموعة من كتب الهدايا

في مختلف اللغات العربية والافرنسية والانكليزية

موسوعات مصورة ، علوم متنوعة

ثقافة شاملة ـ حضارات الامم

مكتبة انطوان ـ شارع الامير بشير ـ بيروت